نـــــــانـــــــا

احمد بوزفور

العـسـل

ننادي زوجة الأب: "نانا" والجدة للأب أو الأم: "نانا"، وزوجة العم (نانا)، وكل امرأة كبيرة السن (نانا). وأنا كنت أنادي زوجة أبي الأولى (نانا).
ربما لأنني الأصغر في الأسرة، أو لأنني كنت أذكرها بابنها الذي مات صغيرا، أو لأنني أقرأ أمامها السور القصيرة لحزب "سبح" ربما لهذا كله، كنت أثير لديها أكثر من إخوتي الأكبر مني ، سواء من أبنائها أو من أبناء أمي. وتعبيرها الحلو عن حبها لي كان هو العسل.
كانت تحتفظ دائما بجرة عسل لا تنضب. وكلما دخلت بيتها أجلستني جنبها وباستني في جبيني، ثم تدخل "الساحوت" الخشبية في الجرة، وتحسّني "الساحوت" الخشنة الحمراء كانت أجمل وأحلى ثدي في العالم، وأنا كنت ألعق العسل وأقرأ "سبح".

الـعيـن الزركا

ولكن "نانا" لم تكن جرة عسل فقط، كانت جرة حكايات أيضا، كنت أسمع من أعمامي الشيوخ حكاياتهم عن شبابهم ورجولتهم وصراعاتهم على الأرض مع الجيران القدامى، وبلائهم في حروب "بوحمارة" و"عبد المالك" و"عبد الكريم". كنت أنظر مبهورا إلى اللحية البيضاء وهي تهتز كشاشة، وأقرأ فوقها صور البطولة والشهامة والإباء، وأنا خلال ذلك أتسع وأكبر، والعالم يصغر ويتكور، حتى يصبح حبة حلوى في كفي الصغيرة المرتعشة، من الحماس لا من الخوف، من القوة النابتة لا من البرد.

وحين أخلو إلى "نانا" كانت تعيد الحكايات نفسها، الأحداث نفسها، الحروب نفسها ولكن بإحراج أفظع وأقسى، يجعل من أبي وأعمامي الأبطال عصابة من القتلة والسفاحين المتوحشين، لا تهتز لهم شعرة أمام الطفل والمرأة والشيخ المسن. يقتلون ويغتصبون ويستولون، وشعارهم الدائم: "حفنة تراب ولا جفنة نمل".
لم تكن ترحم أحدا، أو تحترم أحدا، كلهم قلبهم "كافر" وعينهم "زركا" والعالم يتسع ويظلم ويتوحش، وأنا أصغر وأنكمش، وأندس في "قشابة" (نانا) الباهتة، ولحمها الأسمر المجعد.
لم تكن الفظاعة في الأحداث أساسا، بل في طريقة حكيها: القتل والدم والخديعة والوحشية تسرد بنغمة رتيبة مستوية لا تعطي أية أهمية للمعنى وظلاله، كمن يقرأ قصيدة عمودية قديمة قراءة عروضية محضة تحافظ على البحر، وتلغي الدلالة.
كانت عين العالم الكبير تزرورق شيئا فشيئا، وضمنها عين "نانا" نفسها.

فعـولـن ومفاعيلن

ذات ليلةّ ، وكما كانوا ينصحونني، خرجت إلى (مراح) الدار لأبول قبل أن أنام.
وأنا أبول في الظلام والصمت والسكون، وأشباح الحكايات تحيط بي: تدفعني إلى الإسراع في البول لأعود إلى الدفء والأمان، وتزيد من إدرار البول في الوقت نفسه، سمعت فجأة صوتا غريبا.. كان ينادي علي.. كان الصوت ينطق إسمي، ولكن بطريقة خاصة: تفصل بين حروفه وتمططها حتى يصير، خيطا، وتصغره في الصيغة حتى يصبح عين إبرة: (ا..ح.. م .. ي..م .. د). لم يناد الصوت غير مرة واحدة. ولكني ارتعدت فزعا، وصرخت .. وبدل أن أعود هاربا إلى الداخل، قفزت إلى الأمام.. إلى خارج الدار. لأن الصوت المنادي كان صوت (نانا)، وسقطت .. ربما أغمي علي... ربما أصبت بصرع، ولكني ظللت محموما عدة أيام، من يومها تبدلت العلاقة بيني وبين (نانا).

أصبحت أخافها أكثر مما أحبها، ولم تعد هي الأخرى تهتم بي، أصبحت العلاقة بيننا شكلية محضة، أصبحت عروضية، نلتقي- ومع آخرين غالبا- فتقول لي:

- فعولن مفاعيلن آحمد. وأجيبها:
- فعولن مفاعيلن آنانا، وينتهي الحوار

منادمـة الــتـنـين

أ-السيدة التي تحدثت عنها فيما سبق، ماتت منذ زمن بعيد وأنا صغير، ولم أعد أتذكر الآن عنها شيئا على الإطلاق. لقد كنت أتحدث -ربما- عن علاقتي بالكتابة، ولذلك، أرجو أن يعيد القارئ - على ضوء هذه الملاحظة- قراءة النص السابق من جديد.

ب- قد يحتاج الأمر مع ذلك إلى قراءة ثالثة (هل الثالثة ثابتة؟) إذ أنني لا أدري في الحقيقة عمن أو عماذا كنت أتحدث. أما الكتابة ! فمن يستطيع الحديث عنها؟ من يستطيع أن يشرب الراح مع التنين في الصيف. كما يقول الجميل أو نواس؟ من؟ ...